

المبدع والقارئ

اربعينية الروائي والشاعر العراقي صبري هاشم

(ت. 11 نيسان/أبريل 2016)

د. حامد فضل الله/برلين

في مثل هذه المناسبات الحزينة، تتقاطر الذكريات على الرأس. تأمل الغربة - كملاذ موقت - بجلوها ومرها وهمومها، منها هموم الوفاة خارج الوطن، بعيداً عن ترابه، عن مرتع الطفولة والأتراب والأهل والاصدقاء والذكريات الحميمة.

تعرفت على صبري عند عودتي الثانية الى برلين، وهو قادمٌ اليها من هانوفر عام 1996

ضمتنا في البداية، حلقة ثقافية/ادبية صغيرة بمشاركة الشاعر العراقي حامد حميد والكاتب والشاعر السوداني أمير حمد علي ناصر. كنا نقرأ وناقش ونتبادل انتاجنا. ولكنها اندثرت سريعاً شأن كل منظماتنا العربية، لا عمراً طويلاً ولا ثمراً وفيراً. ولكن توثقت علاقتي معه لينضم الى اصدقاء العراقيين وما أكثرهم وما أكرمهم. كنت اعرض عليه قصصي القصيرة، يطالعها متمعناً وناقداً وهو الكاتب المتمرس، وأنا احبو في مجال وحقل بعيداً عن تكويني وتأهيلي، دون إهمال التكوين الذاتي. نبهني الى اهمية العنوان في القصة، فهو العتبة الأولى التي تغري القارئ بالدخول الى عالم النص ويتضمن العلامة والرمز، فتتجلى بذلك جوانب اساسية من دلالات النص. وهذا ما نبهني اليه ايضا من قبل كاتبنا المبدع الراحل الطيب صالح، عندما شرفنا زائراً ومشاركاً في جمعيتنا الأدبية البرلينية . وصبري الذي كان يعاني قسوة الترحال والهجرة القسرية ، من الموصل الى الكويت ومن عدن الى دمشق ومن هانوفر الى برلين، كان لا بد ان ينعكس ذلك في انتاجه الشعري والنثري.

يكتب في قصيدة "برلين مدينة الكراهية" (17.2.2011):

لا تحزن يا ولدي

حين تعلم أن مَنْ لا وطن يحتويه

لا تحتضنه المنافي

وحتى لا يصدم عنوان القصيدة القارئ المتعجل ، يسبق صبري - فبرلين المدينة التي احتضنته واثاحت له الاستقرار
- القصيدة بتوطئة:

إلى ابني أصيل

اعلم يَا بَني أن في صدر كل امرئِ

جنيماً عنصرياً يظهر إن لم يردعه..

يكبر إن لم يحجمه.. يتهور إن لم يكبحه

ويقول في قصيدة " غريب ما بين عدن وبرلين (16.4.2014)

حين أبحث في برلين

حين أبحث عن وطن بلا جدوى

تسخر من ضعفي المنافي

وعلى وجهي تهب الرياح

في الرحيل الأبدي ، لست في ضلال

يكتب:

قال، سيكون الرحيل أبدياً. قلت سأعود

واختفى من ليلي بدرّ حلمتُ به ، كان وجهُ العراق

ويكتب بلوعة في روايته الرائعة " هوركي أرض آشور " . وكان العراق بعيداً.. بعيداً.

ألم يصرخ الشاعر السوداني صلاح أحمد إبراهيم من باريس في قصيدته (في الغربية):

والنيلُ بعيدٌ ، النيلُ بعيدٌ

والوطن هو الوطن مهما طال الغياب والعراق الحبيب وشعبه الجريح الذي يعاني القهر والقسوة والظلم، عراق
الجواهري والسياب ونازك الملائكة والبياتي وسركون بولص وغائب طعمة فرمان و علي الوردي وجواد علي
ومصطفى جواد وعلي جواد الطاهر ونوري عبد الملك وجواد سليم وإبراهيم السامرائي ويوسف العاني - الذي
تشرفت بمعرفته في صيف 1958 في مدينة لايبزج - لا يزال حُلماً بعيداً.

في ديوانه "جزيرة الهدهد" تطالعك قصائد الومضة أو البرقة أو اللحظة:

في قصيدة "اغتياب"

إلى واحدٍ

لا أعرفُهُ

رفقاً

بواحدٍ

لا تعرفُهُ

وفي قصيدة "صحوة"

أيها الصديقُّ

أيقظتنا

حيثُ كنا نمنحُ صداقةً

لَمَن أتلفت خلاياه

الضعيفة

وجف ضميره

وفي قصيدة "بخت"

كلما حاولتُ

البحثَ

عن الوفاءِ

كلما

ضاقت دائرةُ

الأصدقاءِ

وفي قصيدة "هلام"

الصوتُ القادمُ من جوفِ قوقعةِ

صوتِ نبيِّ أسير

أو فارسِ عابثِ حوريةً

في غيابِ القمرِ

أو فتىً تاه في الأعماقِ

أغوته رقصهُ الخلجانِ

في زرقةِ الحريرِ

هذا الصوتُ القادمُ

صوتُ صبيِّ

استهوته امرأةٌ

خُلقت من مسكٍ وعبير

وفي قصيدة "سأحتفي بك أيها القمر" 27 . 11 . 2015

سأحتمي بورديك من ضياع أيها القمرُ

أنا طائرُ المتاهةِ

نجمتي أغواها إلى الرحيل دليلُ

وارتحلْتُ

ثم من أوهمني المسافاتُ

وأنا أضعتُ إليك الطريقَ

فأعذريني يا زرقاءُ ثانيةً

ثم احتملي جنون طائرٍ باتَ بلا سفرٍ

الكلمات السهلة والبسيطة، يجب ان لا تصرفنا عن تجاوز مضمونها الحرفي والعناوين المعبرة، بجانب جمال الصورة ورنين الإيقاع. كما تجد في قصائده احياناً، الجمع بين النقائض و لا تخلو من المفارقة، التي تعكس وعى الذات الشاعرة أمام التجربة الفعلية.

وفي قصيدة "شوق لعينيك"

في عينيكِ

اتساعُ للكواكبِ

في عينيكِ خلاصةُ نبيدِ هذا الكون

في عينيكِ

مشوارٌ طويلٌ ... زمنٌ من حنين

حبيبي

لم أنسَ شراءَ أشرطةٍ

لضفائركِ الجميلة

لكني

نسيْتُ تقبيلك هذا الصباح..

قبلائي

من هي هذه الحبيبة ، التي تفوق عينها اتساع الكواكب والحنين والشوق الى ضمها وتقبيلها، انها دنيا ابنة الشاعر .

قدم صبري محاضرة، أثناء مشاركته في الملتقى الأول للرواية العراقية المغتربة - لندن أكتوبر 2013، بعنوان " شهادة روائية السردية في الرواية الشعرية ". عارضا فيها أعماله الروائية ويقول : على حذر ألامس المصطلحات. وعلى حذر أكبر اقترب من وضع المفاهيم. ماذا أسمى عملاً كتب في معظمه شعراً " قصيدة روائية، رواية شعرية، ملحمة قصيرة ". لقد تركت الأمر للنقاد والباحثين.

في قصته القصيرة ، نقشٌ على جدارِ الصَّمْتِ في مجموعته القصصية "ليلة ترخم صوت المغني"، نجد بجانب السرد والحوار والقصصية، مقاطع مثل: لا تطير الروح السوية كالفراشة في الفضاء الرمادي المتروبع بالأرواح

الشريرة... "مريا الام" وتوزع في المناحي دون إستجابة حتى صدها.. يتموج في الآفاق محمولاً على ذرات النسيم... هبط المساء و راحت الشمس بعيداً تجمع بقايا خبيتها.. أنفاسها المتعثرة.. أصابعها المحمرة " . هذه مقاطع شعرية. ماذا نطلق على هذا الجنس الأدبي؟ القصة الشاعرية، أو القصة الغنائية، أو الكتابة عبر النوعية، أو القصة - القصيدة...

ونقرأ الفقرة التالية في رواية هوركي أرض آشور

"ونحن نظير.. نظير. نحن الفتیان من فوق الماء كدنا أن نظير. حاولنا والبصرة نحونا ذاهلة تسرح النظر، إنما القادر منا يطير.. عنا يرتفع ومن فوقنا إلينا يُحْدَق.. يتعد.. سهيل يتعد ويطوف الأرجاء ونحن مازلنا في المحاولة نرفرف.. يطير.. يطير والخلق من حولنا إلى كبد السماء يصوبون البصر.. وحين يرسم في الهواء نجمة عارية الفخذين وقرنفلة تراقص ساقية إلى خريها يهاجر اليمام.. وحين يلقي فوق كل بيت جنة صغيرة، يدهشون، وهو يطير.. يطير، ونحن مازلنا نحاول أن نظير حين تنزل الشمس بكل أمهتها إلى بركة ماء وإليها يطير العشاق في غيبوبة الجسد. يطير وعن عجزنا نعلن: حاولنا أن نظير ولكن. لكن سهيلاً هو القادر فينا، يخلق بعيداً يتجاوز الأنحاء.. ومن خوفنا نصيح: يا سهيل انزل لئلا تسحرك الشمس.. يصدملك الطير.. يعشقتك النجم. لم يسمع حين نضيّع في غمرة الدهشة نداء".

هنا ايضاً السرد والحوار المخفي والقصديّة، تتخللهم مقاطع شعرية. أليس هذا مثالاً للقصة - القصيدة بمفهوم إدوار الخراط وهو مبدع وناقد أدبي في عين الوقت - المختلف عليه - ، بالرغم من أن النص داخل رواية. و ربما نجد نماذج لذلك في روايته " الخلاسيون " - التي صاغها شعرياً - ترتبط عضويًا داخل جسد الرواية.

يقول صبري في حوار مع السيدة وفاء الربيعي بتاريخ 25. 1. 2013 "في معظم أعماله ثمة تغيير في طريقة السرد وتغيير في طريقة البناء وتعدد في مستويات الخطاب أو ما يسمى بالالتفات. لما لا نكتب نصاً عصياً على الكسل النقدي أو الغباء النقدي؟ نريد نصاً لا يمكن إخضاعه في حالة نقده إلى هذه المدرسة البنوية أو تلك التفكيكية أو الأخرى الشكلانية". ومواصلاً في شهادته اللندنية، "إنني حذر من ملامسة والاقتراب من المصطلحات والمفاهيم، تاركاً الأمر للنقاد والباحثين". وأنا أضيف، القراء. ربما نفهم تيرم المبدع من تعدد المدارس النقدية. ولكن هذا ما يفرضه التطور في النقد الأدبي وما توصل إليه من قواعد وأصول والبحث عن المنهج. وبالرغم من تباين وجهة النظر، لا بد من ضبط المفاهيم والمصطلحات والا دخلنا في فوضى التفسير والتأويل والقراءة الاعباطية والانطباعات الشخصية التي تبعد القارئ عن الوصول الى الفهم العميق لدلالة النص وتذوق

جماليتها، فالقارئ عامل أساس في تفسير النصوص وليس عاملاً ثانوياً كما في الماضي. أود في هذا الصدد، أن أشير بإيجاز، ودون الدخول في التفاصيل الى نظرية التلقي

والمعروفة باسم مدرسة كونستانس. Die Theorie der Rezeption.

التي تركز فيه على دور القارئ في تحديد معنى النص أو تفسيره. ومن ابرز ممثليها في المانيا، وكتابه الجامع "الخبرة الجمالية والتأويل الأدبي" Hans Robert Jauss هانز روبرت ياوس Ästhetische Erfahrung und literarische Hermeneutik

. وكتابه الهام "فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب". Wolfgang Iser وفولفجانج إيزر

Der Akt des Lesens, Theorie ästhetische Wirkung

عارضاً فيه نظريته حول التلقي والأثر، ومعضلة حرية التأويل وحرية التلقي.

شارك صبري بإثراء حياتنا الثقافية، عارضاً أعماله الأدبية أو ناقداً أو معلقاً على غيرها. وصبري بطبيعته السمحة وهى خليط من التواضع والأدب الجم، و لا يوصف بالترجسية ، التي يعتبرها البعض من مُتلازمة الشعراء.

ان النضال السياسي والميداني والثقافي والاعتقال والغربة من أجل الحرية والكرامة الانسانية، كان لابد ان تترك أثارها النفسية والجسدية عليه، فكتب بعض رواياته وقصائده وهو طريح سرير المستشفى.

الا يعتبريك الحزن والألم، عندما تقرأ بعض قصائده، التي كتبها في فترة قصيرة قبل رحيله، يناير ومارس 2016 ، هنا مقتطفات من قصيدتين:

رَبِّي بَعْضَ أَشْيَائِكَ
وَلَا تَعْصِفِي بِكَيَانِي أَنَا الذَّاهِبُ نَحْوَ الرِّيحِ
نَحْوَ الْأَصْوَاتِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ مِنْهَا صَدَى
لَا تَعْصِفِي بِحَزَنِي
فَعَلَى مَنْ تَبْكِي الْعَيُونَ مِنْ بَعْدِي أَنَا الْغَارِبُ
أَعْلَى وَطَنِ
وَفِيهِ تُزْهَقُ الْأَرْوَاحُ

وَتُحْصَدُ الْأَحْلَامُ
أَمِ عَلَى بِلَادٍ أَضْحَتْ خَرَابًا فِي الْجَوَارِ
أَمِ عَلَى الَّتِي لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى ذَاكِرَةٍ؟
عَلَى مَنْ تَبْكِي الْقُلُوبُ أَيُّهَا الْقَدْرُ؟

إِلَى هُنَاكَ يَا زُرْقَاءُ نَرْتَحِلُ

مَلْمَمٌ أَشْيَاءَكَ وَتَهْيِي لِلرَّحِيلِ...

مَلْمَمٌ أَشْيَاءَكَ فَلَقَدْ أَزَفَ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ...

وَالْقَافِلَةُ أَوْشَكَتْ عَلَى السَّفَرِ

يَصِيحُ الرَّاوِي وَهُوَ عَلَى قِمَّةِ جَبَلِ هُورْكِ " أَرْنِي وَجْهَكَ أَيُّهَا الرَّبُّ الْبَدِيعُ يَا حَامِلَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى... أَنَا عَبْدُكَ
الَّذِي هَجَرَهُ الْأَوْلِيَاءُ وَالْمُتَّقُونَ. هَجَرَهُ الرَّفَاقُ وَالْمُنَافِقُونَ... يَا أَيُّهَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ... أَنَا عَبْدُكَ الْفَقِيرُ... لَقَدْ زَهَقَتْ
أَرْوَاحُنَا مِنْ هَذَا الرَّعْبِ السَّاكِنِ فِيْنَا. ابْعَثْ فِي نَفُوسِنَا الطَّمَأْنِينَةَ، مِنْ هَذَا الْخَلَاءِ أَنْقِذْنَا وَبِرَحْمَتِكَ فَاشْمَلْنَا...".

أثناء اعداد هذه الورقة ، كانت تترا أمامي عيني صورة صبري : الجسد النحيل والصوت الهادي بنكهته الجنوبية
البصراوية والبسمة الصافية، فلا تصدق أنه يعاني. وفي الخلف تختبي الروح المتوقدة التي تكابد وهن الجسد ووجع
الابداع، فالكتابة معاناة ومغامرة مستمرة والشعر توتر، فتاتي الكلمات متفجرة، متوهجة، منفعة، ناقدة،
ومحرضة. وكان يطوف في ذهني أيضا هذا اللقاء، ومردداً في السر، يا صبري، نحن هنا ، هذا الجمع النبيل ، هذا
الجمع الحزين نقول لك يا أيها الراحل المقيم، نحن نبادلك محبةً بمحبةٍ ووفاءً بوفاءٍ.